# المحاضرة الثانية

## اوضاع الدولة الفاطمية وبلاد الشام

**١. أوضاع الدولة الفاطمية :**

لم تكن الدولة الفاطمية بأفضل حال من سابقتها (الخلافة العباسية) وذلك بسبب ما كانت تعانيه من ظروف سياسية واقتصادية ادت الى ارباك الوضع الداخلي في مصر عشية الغزو الصليبي ، فقد عاشت ظروفا سياسية عصيبة ، نتيجة تدخل الشخصيات المتنفذة في القصر الفاطمي ، لا سيما بعد وفاة الظاهر الذي ترك ابنه المستنصر وريثا للعرش وهو لا يزال صغيرا ، غير قادر على تدبير شؤون البلاد ، فاصبحت مقاليد الحكم بيد أمه التي لم تكن على معرفة بأمور السياسة وضروبها ، اذ ظهر في عصرها التمييز العنصري بين الجنود الاتراك والجنود العبيد ، وذلك سبب تقريبها للوزير ابي سعيد التستري أكثر من غيره ، الامر الذي أثار نقمة الوزير صدقة بن يوسف الغلامي ، فعمل على قتل التستري عن طريق اثارة الجنود الاتراك ضده فغضبت لذلك وبدأت بتقريب الجنود العبيد اليها وتحريضهم على الجنود الاتراك مما نتج عنه حصول المنازعات الكثيرة بين الطرفين ، أدت بطبيعتها الى اضعاف الجيش الفاطمي من جهة واستنزاف موارد البلاد من جهة أخرى . وهناك من المؤرخين من يعتبر ان المستنصر الفاطمي كان سبباً بحدوث هذه الفتن ، اذ جرى اول تصادم بين العنصرين في احدى النزهات التي كان خارجا بها المستنصر الفاطمي ، حيث قتل أحد الجنود الاتراك بعد أن شهر سيفه على جماعة من العبيد ، مما دفع بالاتراك الى مهاجمة العبيد .

ويورد المقريزي رواية غريبة بهذا الخصوص اذ يقول : ( انه كان يخرج كل عام بنزهة مشابهة في غير موسم الحج على سبيل الهزل والضحك ، ويلبس لباس الحجاج وكأنه يريد الحج ، ويحمل معه الخمور عوضا عن الماء والطبول والات الطرب والمغنين والراقصين ، وفي احدى هذه الجولات كانت الشرارة التي اشعلت هذه الفتن و الحروب) .

نحن لا نعتقد حصول مثل هذه الامور ، ولكن الذي يمكن أن نستنتجه من هذه الرواية ان الروح العنصرية كانت متأججة وبشكل كبير في البلاد بين الترك والعبيد من جهة وعدم قدرة الحكام الفاطميين على ضبطها من جهة اخرى. بدليل ما قام به المستنصر

الفاطمي من محاولة لايقاف النزاع القائم بين الجانبين عندما كلف وزيره ابو الفرج بن المغربي ، الذي تردد في الصلح بين الطرفين ، ولكن دون جدوى وقد عدّ الجند الاتراك المستنصر بالله الفاطمي منحازا الى الجند العبيد ، اتهموه بالتعاون معهم وذلك بامدادهم بالاموال والاسلحة ، فهجموا عليه وحصروه في قصره، واضطروه الى دفع اموالٍ طائلة ، الامر الذي انعكس على حالة البلاد الاقتصادية والسياسية ، اذ انعدمت الثقة بين المستنصر الفاطمي ووزرائه ، فكانت عملية تعيين الوزير واعفائه من المسائل الشائعة في تلك الفترة . فقد اشار المقريزي الى تلك الحالة بقوله ( فكان الواحد منهم لا يلبث أن يأتيه كتاب تعيينه في منصب الوزارة حتى يأتيه كتاب عزله عنها ). ويذكر أحد المؤرخين أنه تم تعيين عشرين وزيرا في غضون اربع سنوات ، ويشير حسن ابراهيم حسن الى تلك الاوضاع المتردية حول تعيين الوزراء أنه تم تعيين اربعون وزيرا في غضون تسع سنوات وذلك بعد وزارة البازوري سنة ٤٥٩ هجرية. الامر الذي أجج الروح العنصرية بين الجنود المرتزقة من اتراك وسودان وجعلها اكثر خطورة في ظل هذا الحكم الضعيف كما وقد تزامن مع هذه الاوضاع السياسية المتردية أزمة اقتصادية اجتاحت جميع بلاد مصر ، والتي امتدت الى أكثر من سبع سنين تقريبا ادت الى انزال الكوارث الاقتصادية المدمرة ، نتيجة انخفاض مناسيب المياه في نهر النيل وسوء الحكم واضطرابات الامور ، وبالغ عدد من المؤرخين في ذكر احوال تلك الازمة وما نتج عنها من افعال وتصرفات قد تكون في غاية الغرابة ، من الامثلة على ذلك ما ذكره ابن خلكان اذ يقول (حدث في ايام المستنصر بالله الغلاء العظيم الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف عليه السلام حتى قيل أنه بيع رغيف واحد بخمسين ديناراً) وذكر ابن تغري بردي في احداث ٤٥٩هـ نحو ذلك قائلا (وفيها كان بمصر الغلاء والقحط المتواتر الذي خرج عن الحد ولا زال في هذه السنة والتي قبلها الى أن أخذ أمره في نقص في سنة ٤٦١ هـ وبيع القمح في هذه السنة بثمانين ديناراً) . وذكر بعض المؤرخين في حوادث سنة ٤٦٢هـ ما عمَّ مصر من الغلاء الشديد حتى وصل الحال بالناس ان أكلوا الميتات والجيف والكلاب . ويتحدث المقريزي عنها فيقول : ( واشتد الغلاء بمصر وقلت الاقوات في الاعمال وعظم الفساد والضرر والجوع حتى أكل الناس الجيف والميتات ووقفوا في الطرقات يخطفون من يمر من الناس فيسلبونه ما عليه ، ونتيجة لهذه الاعمال المروعة اصبح الناس يخافون على انفسهم من الخروج ليلا، حتى أن الامر تعد

أكثر من ذلك ليشمل موتى المسلمين وما يقوم به اللصوص من نبش القبور ليلا ، فاصبح الناس لا يستطيعون دفن موتاهم في النهار بل ينتظرون حتى يجن الليل . وكان من شدة هذه الازمة أن أخذ عدد من الناس بالمتاجرة بالحيوانات المحرمة شرعا ، بل اصبحت من المسائل الشائعة بغية توفير الطعام ، فيقال ان سعر القط وصل الى ثلاثة دنانير وسعر الكلب خمسة دنانير ، فنحن نستبعد حصول مثل هذه الاعمال بل نجد فيها كثيرا من المبالغة، ولكنها تشير بشكل أو بآخر على عظم الفاقة التي اجتاحت مصر في تلك الفترة من جهة ، وسوء تدبير النظام القائم من جهة أخرى .

وهناك نجد من يشير الى أن هذه الازمة اصابت جميع مؤسسات الدولة ورجالها بما فيهم الوالي الفاطمي ، اذ يذكر أن المستنصر الفاطمي ، اصبح يجلس على حصيرة حتى أنه لا يستطيع أن يوفر الطعام لنساءه . كما يجب عدم اغفال دور التجار في هذا المجال وما قاموا به من احتكارات لاسيما في السلع الضرورية التي كان الناس بأمس الحاجة اليها مثل المواد الغذائية بغية ارتفاع اثمانها ، وهنا يمكننا القول بأن المواد الغذائية باتت موجودة في السوق ولكن بأيدي المحتكرين ، ولو كانت هناك سلطة رشيدة لقامت بأعمال من شأنها تقليل شدة هذه الازمة . الامر الذي دفع العامة الى مهاجمة الوالي الفاطمي وحاشيته وتهديدهم بالقتل اذا لم يضعوا حلا لهذه الظروف العصيبة، ولاسيما فيما يحتاجونه من مواد غذائية ، ونتيجة لهذه الضغوط التي تعرض لها المستنصر الفاطمي قام باستدعاء الامير بدر الجمالي والي عكا محاولة منه في ايجاد حل مناسب لما تعرضت له مصر من ازمة اقتصادية فتوجه الامير بدر الجمالي الى مصر وحال وصوله قلده المستنصر بالله الوزارة وورد في أمر توليته ما نصه ( وقد قلدك امير المؤمنين جميع جوانب تدبيره وناط بك النظر في كل ما وراء سريره) يتبين من خلال هذا النص أن بدر الجمالي اطلقت يده في جميع الامور . فكان اول عمل قام به هو التخلص من جميع المناوئين له في الحكم . وهذا يعني ايذانا للبدء بالدخول في سلسلة جديدة من الصراعات الداخلية حول سلطة الوزارة . وعلى الرغم مما قام به بدر الجمالي من الاعمال في مواجهة الازمة الاقتصادية ، إلا أن ذلك لم يحد من حجم الانقسامات الداخلية التي تعرضت لها مصر ، ولاسيما بعد وفاة المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٨٧هـ اذ تولي الافضل بن بدر الجمالي الوزارة بعد ابيه وعمد على اقصاء ابن المستنصر نزار وتولية أخوه الاصغر أحمد

في حكم البلاد ولقبه بالمستعلي الامر الذي نتج عنه صراعات داخلية بين الافضل وبين نزار الذي انحاز اليه أهل الاسكندرية وبايعوه بالخلافة ولقب بالمصطفى ، وعلى الرغم من ان الافضل تمكن من اخماد الفتنة الا انه ألحق الضرر البالغ بالاسكندرية وأهلها ، كما وان هذه الحروب استنزفت كثيراً من موارد البلاد وطاقاتها . وهذا ما اشار اليه ابن تغري بردي اثناء حديثه عن الدولة الفاطمية ووضعها المتردي بقوله (ووهنت دولتهم وانقطعت دعوتهم . . ولم يكن للمستعلي مع الافضل بن أمير الجيوش حكم ) ومن خلال ما تقدم يمكننا القول ان الدولة الفاطمية اصبحت على شفا جرفٍ هارٍ نتيجة ما كانت تعانيه من صراعات داخلية من جهة ، وما تعرضت له من ازمة اقتصادية من جهة أخرى ، فضلا عن عجز الوالي الفاطمي عن القبض على زمام الامور وتداركها.

**٢. أوضاع بلاد الشام**

بعد أن تمكن السلاجقة من فرض نفوذهم على الخلافة العباسية على اثر دخول سلطانهم طغرلبك الى بغداد سنة ٤٤٧هـ، فقد رأى هؤلاء السلاجقة أنهم حماة للخلافة، فوجهوا اهتماماتهم الى استعادة ما فقدته من املاك ونفوذ، لذلك قرر سلاطينهم التوجه الى بلاد الشام، لا سيما بعد المراسلة التي قام بها امير حلب الامير محمود بن نصر بن مرداس مع السلطان السلجوقي الب ارسلان ويبدو أن قدوم امير حلب على هذه الخطوة كان نتيجة لما رآه من قوة السلاجقة من جهة، وضعف الفاطميين من جهة أخرى، بدليل ما قاله أمير حلب للحلبيين (لقد ذهبت دولة المصريين، وهذه دولة جديدة، مملكة سديدة ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلون دمائكم لأجل مذهبكم، والرأي ان نقيم الخطبة، خوفا من أن يجيئنا وقت لا ينفع فيه قول ولا بذل ) .

المصادر :


**١. قاسم عبيدة قاسم : ماهية الحروب الصليبية .**

**٢. جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية الاولى .**

**٣. أحمد رضا بك : الحيثية الادبية للسياسة الغربية في الشرق، ترجمة محمد ابو رقيبة، ومحمد صادق الزلمي .**